

خاتمة فلسفية...!

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني



تلك هي الخاتمة التي انتهى إليها الأستاذ عباس محمود العقاد . ولم تكن هذه الخاتمة غريبة على هذا الكاتب الذي بدأ حياته أديباً ، ناقداً ، شاعراً ، وكل شيء إلا الفلسفة . فقد يبدو للقارئ العادي أن مجالته الفلسفة الحقيقية مما يتناقى مع مظاهر كتاباته وكتبه ، ومطالعاته في الكتب والفنون ، غير أن الناظر في أعماق آثاره القلمية ، أو القارئ ماوراء السطور ، يلحح ولا ريب فكراً نافذاً عميقاً يتخطى الظواهر القريبة المألوفة ، ويذهب إلى الأصول الأولى والغايات البعيدة . وتلك هي النظرة الفلسفية ، رد الكثير إلى الواحد ، والبحث عن العلة الأولى والغاية النهائية .

ولهذا السبب كان جمهور القراء يجدون مشقة في فهم آرائه ، لأنه لا يحفل بالتوافه ويمضي إلى الأعماق ، ولأنه كاتب لا ينزل إلى الجماهير بل يأخذ بأيديهم إلى مستواه .

وكتاب « في بيتي » الذي صدر في سلسلة « اقرأ » ينبىء عن هذه الخاتمة الفلسفية ، ولو أن صاحب الكتاب تجنب الاعلان في العنوان .

أما كتاب الشيخ الرئيس ابن سينا ، الذي صدر بعد ذلك بعام ، فقد أسفر وأبان ، وكشف فيه العقاد عن حقيقة نزعاته الفكرية ، وأبجاءاته العقلية .

غير أن نزعة الأدب التي التزمها خلال سنوات طويلة من حياته لم يتخل عنها ، فهي منه بمنزلة الطبيعة . وبتعبير فلسفي : أصبحت « مادة » فكره فلسفية ، و« صورة » فكره أدبية . وأمنى بالصورة الأدبية أنه ينحو منحى ذاتياً شخصياً في التعبير ، في مقابل النزعة العلمية التي يعبر فيها صاحبها تعبيراً موضوعياً . لا تحس فيه بالتأثيرات الشخصية .

أو هكذا أفهم الأدب ، ولعل فريق الأدباء يفهمون منه شيئاً آخر .

وقد تسأل نفسك : ما المادة وما الصورة ، هذان الاصطلاحان اللذان وضعتهما بين أقواس ؟ .

ليس غريباً على من درس الفلسفة أن يعرفهما ، فهما خلاصة مذهب أرسطو في الفلسفة ، حين يقول : إن كل جسم طبيعي مركب من هيولى أو مادة ، وصورة . ولا مادة بغير صورة كالتمثال مادته النحاس ، وصورته هيئته التي هو عليها . ولست تجد مجلساً بغير صورة ، مهما تكن .

لقد تعرض العقاد ، حين تحدث عن فلسفة ابن سينا ، لأفلاطون وأرسطو ، وأفلوطين ، والسكندي والفارابي ، بل وصل إلى فلسفة المصير الأخير الذي نميش فيه ، فكأنه اتخذ من الشيخ الرئيس محوراً تدور حوله الآراء من الماضي البعيد إلى الحاضر القريب .

وهو منهج سليم ، لأن الفلسفة هي تاريخ الفلسفة .

وقد رأى أن يصنف المشكلات الفلسفية التي سوف يعالجها حتى يحضى في ترتيب ووضوح ، فلخصها في مسائل أربع : وجود العالم ، وجود النفس ، وجود الشر ، حرية الإنسان . ثم نظر إلى حلول الفلاسفة القدماء لهذه المشكلات المعيرة الحل ، وأثبت رأى ابن سينا فيها ، وهي على كل حال مشكلات لا تزال قائمة ، تعالجها الفلسفة ، وأكبر الظن أن الآراء سوف تظل متضاربة في شأنها ، لأنها تفوق نطاق العقل وحدوده ، على الرغم من تقرب العلم الحديث لبعض تفصيلاتها .

وإذا أردت أن تعلم رأى العقاد الشخصي في هذه المشكلات فاقراً تمقيبه في آخر الكتاب ، فهو يذهب إلى أن المادة والعقل شيء واحد . فيضع بذلك حداً حاسماً للمشكلة التي أثارها الأقدمون فمشكلة الثنائية في الوجودات ، أو الفلسفة المادية والفلسفة الإلهية ، كما يقول العقاد في تقسيمه لمشكلات الفلسفة ، أو بين المادية والروحية كما يذهب إلى ذلك بعض المفكرين .

وفي ذلك يقول ما نصه في آخر الكتاب « فصورة المادة